من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قد تفوق الحقيقة أحياناً من حيث الغرابة والروعة والميل الى الدهش الخارق، كل ما يتصوره الخيال المغرق. وهذه ظاهرة نلمسها فى كثير من حوادث التاريخ، كما نلمسها فى الحوادث الفردية. ومن الأشخاص العاديين من تهيأ له حياة فياضة بالمخاطر والمغامرات الدهشة تجعل منه شخصية فريدة تخلق بذكر التاريخ، وان لم تؤثر فى مجرى حوادثه. وكثيراً ما تبدو هذه السير الشخصية العجيبة بوائع حوادثها ومفاجآتها فى لون خارق لا تسبغه الحوادث العظيمة على التاريخ نفسه، ولا يسبغه الخيال المغرق على القصة المبتكرة.

ومن هذه النماذج الخارقة للحياة الفردية، حياة الفنان الايطالى بنفونوتو تشلليني Benvenuto Cellini، وهو نموذج ليس له فيما نعتقد مثيل فى الغرب أو الشرق؛ ومما يزيد فى قيمته وروعته انه صورة رسمتها يد ذلك الفنان البارع الذى نقرأ حياته، عن نفسه وعن حوادث حياته. وكم من تراجم شخصية بديعة انتهت الينا لشخصيات عظيمة وبأقلام قوية ساحرة؛ ولكنا لا نستطيع أن نامس فيها رغم روعتها، تلك الحياة المضطرمة التى تفيض بها سيرة بنفونوتو تشلليني. ومن الغريب أن تشلليني لم يكن كاتباً ولا أديباً، يسبغ من أدبه وقلمه على حوادث حياته سحراً وقوة؛ ذلك أن معظم التراجم الشخصية العظيمة التى انتهت الينا أتيحت لها أقلام بارعة صاغتها فى أوضاع أدبية باهرة، وكثيراً ما يتفوق الجمال الأدبى فيها على روعة القصة وسحر الحوادث. ويعرف الذين قرأوا «اعترافات» جان جاك روسو، أو ترجمة المؤرخ الفيلسوف جيبون لنفسه، أى جمال يسبغه القلم ويسبغه البيان الرائع على تلك الصحف الشائقة التى يقدمها الينا كل من روسو وجيبون عن نفسه، حتى أن سحر البيان ليسمو فى مواطن كثيرة، على روعة الحوادث ذاتها. ولكن تشلليني كان أكثر من كاتب وأديب؛ كان فناناً عظيما تتجلى عبقرية الطبيعة فى مواهبه، ويستمد منها سحر البيان وآية الوصف؛ وإنا لنلمس فى تلك الصحف القوية التى تركها لنا عن حياته العجيبة، روعة هذه المواهب الساذجة، وتحملنا بساطتها المؤثرة الى أعماق هذه النفس التى تحدثنا لا بواسطة اللفظ الساحر، ولكن فى نوع من الوحى والتأثير الروحى، ونكاد نشعر ونحن نتتبع تلك الصورة الحية التى يرسمها لنا تشلليني عن نفسه، اننا نرى تشلليني نفسه، لا تفصلنا عنه القرون، ونشهد معه تلك الحوادث العجيبة التى يقصها علينا، ونشهد أحوال عصره ماثلة أمامنا، فى ألوان ساطعة، تسبغ عليها ريشته البارعة كل ما فى الحقيقة من قوة وروعة وحياة

***

كان تشلليني من غرس عصر الأحياء، ذلك العصر الذى تفتحت فيه مكامن العبقرية البشرية، وأخرجت لنا ثبتاً حافلاً من تلك الشخصيات التى يزدان بها تاريخ الانسانية؛ وقد بزغ فجر هذا العصر فى ايطاليا، منذ القرن الرابع عشر، وأشرقت طلائعه على يد دانتى وبتراركا وبوكاشيو وما كيافيللى، وميراندولا وجاليليو، ثم على يد رافائيل سانزيو وميشيل انجيلو وعشرات

عليه منك وحدك. وسأتصدى معك للرزق أطارده وأواثبه، وأغاديه وأراوحه و . . . فقطع عليه الهزيل وقال:

ياصاحبي، إن عليك من لحمك ونعمتك علامة أسرك، فلا يلقانا أول طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً، وأهوى علىّ بالضرب لأنطلق حراً، فأنت على نفسك بلاء، وأنت بنفسك بلاء علىّ

وكانت الفأرة التى انجحرت قد رأت ماوقع بينهما، فسرها اشتغال الشر بالشر . . وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة فوثبت وثبة من ينجو بحياته، ودخلت فى باب مفتوح، ولمحها الهزيل، كما تلمح العين برقا أومض وانطفأ، فقال للسمين: اذهب راشداً، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة أن الوقوف معك ساعةً هو ضياعُ رِزقٍ، وكذلك أمثالكَ فى الدنيا، هم بألفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الأسفل . .

مصطفى صادق الرافعى

آخرين من أبطال الفن الرائع ترجمهم لنا جميعاً ، جورجو فازارى فى أثره الضخم[1] ؛ وكان بنفونوتو تشلليني من جنوذلك الجيش الباهر الذى لبث ضوء عبقريته يسطع فى جنبات ايطاليا زهاء قرنين . ولم يكن فى الصف الأول من ذلك الثبت الحافل ، ولـكنه يقدم الينا بحياته الغريبة أقوى وأصدق مثل لعصره ، بكل ما فيه من حسنات ورذائل ؛ ولا غرو فقد عاش تشلليني فى عصر البابوية الذهبي ، وعصر الحروب الأهلية والغزوات الأجنبية فى ايطاليا ، واشترك بقسط وافر فى كثير من الحوادث العظيمة التى كانت تهز أسس المجتمع الايطالى يومئذ ، وشهد عن كثب سير أولئك البابوات والأحبار الذين كانت أقوالهم ونزعاتهم يومئذ كل شىء فى الملك والحياة العامة

ولد تشلليني فى أسرة متوسطة الحال فى سنة ١٥٠٠ بمدينة فلورنس (فيرنتزا) التى كانت يومئذ فى طليعة المدن الايطالية الزاهرة ، وكانت موئل الفنون والآداب ؛ وكان أبوه مهندساً وموسيقياً يجيد العزف بالمزمار ، وفناناً يقوم بصنع التحف العاجية الدقيقة ؛ وكان يحاول أن يغرس فى نفس طفله بنفونوتو حب الموسيقى ويرغمه على العزف والغناء . ولـكن بنفونوتو كان يتضجر من الموسيقى ، ويؤثر عليها الرسم . ولما بلغ الخامسة عشرة التحق على كره من أبيه بحانوت صائغ ماهر ؛ وكان يهوى هذه الصناعة بطبيعته ؛ ولـكنه لم يلبث أن اضطر الى مغادرة فلورنس على أثر اشتراكه فى شجار دموى وقع بين أخيه وبين جماعة من جند الأمير ، وقضى من جرائه بنفى الأخوين من فلورنس ؛ فسار تشلليني الى مدينة سيينا ، واشتغل هنالك حيناً لدى صائغ آخر ؛ ثم سعى والده لدى الـكردينال دى مديتشى الذى انتخب لـكرسى البابوية باسم كليمنضوس السابع ، فسمح للأخوين بالعودة الى فلورنس ؛ واقترح الـكردينال على الأب أن يرسل ولده بنفونوتو الى بولونيا ليتعلم هنالك الموسيقى على أساتذة الفن بتوصية منـه ، فاغتبط الأب لذلك أيما اغتباط ، وقبل الفتى رغم ارادته لأنه كان يكره الموسيقى وينعتها « بالفن الملعون » ، ولبث مدى أشهر يتعلم الموسيقى ، ويشتغل أيضاً بصناعته المحبوبة أعنى الصياغة وصنع القطع الفنية الدقيقة ؛ ثم عاد الى فلورنس يزاول صناعته حتى اشتهر رغم حداثتـه ، وتحدث الناس بمواهبه . وهنا اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين فتى يدعى تاسو ، وهو فنان حفار ؛ فاقترح عليه أن يسافر الاثنان الى رومه ؛ وكانت هذه أمنية تثير خيال فتى ذكى مخاطر مثل بنفونوتو ، فقبل الاقتراح ؛ وسافر الاثنان الى رومه ، وكان تشلليني يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره

وفى رومة اشتغل تشلليني لدى أقطاب فنه ، وزاد كسبه ، وتفتحت أمامه الآمال الـكبيرة ؛ وكانت رومة فى ذلك العصر مدينة الأحبار ، ومعقل الفاتيكان ، تنثر عليها البابوية من سلطانها وبذخها وبهائها ألواناً رائعة ؛ وكان الاتصال بذلك المجتمع القوى الباهر أشد ما يثير طلعة ذلك الفتى الطامح ؛ وكانت البابوية وأولياؤها من الأحبار الأكابر يومئذ موئل الفن الرفيع ، وملاذ الفنانين الموهوبين ؛ فاستقر تشلليني فى رومة يرقب فرصه ، ولبث الى جانب عمله يشتغل بدراسة النقوش والصور الخالدة التى خلفها ميشيل انجلو ورافائيل ، فى صروح رومة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى أتيحت له فرصة الاتصال بحبر كبير هو أسقف شامنقة أصلح له بعض التحف وسر من مهارته وعهد اليـه بصنع اناء بديع مزخرف ؛ وعهدت اليـه زوج الأمير تشيجى بصنع حلية من الجوهر . وهنا يفيض تشلليني فى وصف التحف والحلى البديعـة التى كان يصنعها افاضة تدل على ما كان يجيش به من شغف بفنه ومهنته ، وهنا أيضاً يطلق تشلليني العنان لأهوائه المضطرمة ويصف لنا بمنتهى الصراحة والجرأة مواطن لهوه ، ومواطن عبثه وفسقه مهما كانت من الوضاعة ، ويقص علينا كيف أصابه الوباء الذى عصف يومئذ برومة ، عقب ليلة غرام قضاها مع فتاة خادمة لبنى حسناء جاءت لزيارة صديق له ، فاختص الصديق بها ، واقتنص هو الخادمة خلسة عنها . وقد قص علينا روسو فى اعترافاته كثيراً من مواطن لهوه وفسقه ، فى أحاديث صريحة واضحة ؛ ولـكن روسو يسبغ من بيانه على تلك الأحاديث فى كثير من الأحيان لوناً من الحشمة ، وتـكاد تنم عن شعوره بالاثم والندم واحتقار مواطن الضعف الانسانية . أما تشلليني فانه يقص علينا تلك المناظر الآثمة بكل بساطة ، ويصف لنا طبيعته المضطرمة الجامحة دون استحياء ، ويكشف لنا عن دخائل نفسه دون تحفظ ، وأخص ما يلفت النظر فى ما يقصه علينا من تلك الصفات النفسية ، انه

(١) وهو كتاب فى أربعة مجلدات يحتوى على تراجم المصورين والمهندسين الايطاليين حتى القرن السادس عشر

كان كثير الافراط والعنف ، شغوفاً بالمخاطرة ، تواقاً الى الانتقام ، كثير الجنون والاستهتار .

ونجا تشلليني من الوباء ، بينما احتمل كثيراً من أصحابه ؛ ولكن رومة لم تكد تفيق من عيث الوباء حتى دهمتها مصائب الحرب والحصار ، وزحفت الجنود الأمبراطورية ـ جنود الأمبراطور شارلكان ـ على رومة بقيادة الكونستابل دى بوربون (سنة ١٥٢٧) . وهنا يبدو تشلليني فى ذروة الجرأة والمخاطرة ، فنراه رئيس سرية من الجند المأجورين يتولى حراسة قصر الساندرو دلبينى ، ثم يخف مع سيده الى الأسوار المحصورة ليرى الجيش المحاصر . وفى ذلك الموطن يقص علينا تشلليني قصة لا ينقضها التاريخ ؛ وهى أنه حينما أشرف على الأسوار مع زملائه ليرقب سير المعركة ، رأى وسط الدخان رجلاً يرتفع عن الجميع ، فصوب رصاصه نحوه ، وأطلق مع زملائه فى تلك الناحية عدة رصاصات ، وحدثت على أثر ذلك فى قلب الجيش ضجة كبيرة ؛ وشاع بعد ذلك أن الكونستابل دى بوربون قد قتل من رصاصة أطلقت عليه من وراء الأسوار . ويدعى تشلليني انه هو الذى أصاب الكونستابل برصاصه . وليس فى ذلك ما ينقضه التاريخ ، ولكن ليس فيه أيضاً ما يؤيده . فقد سقط بوربون قتيلا فى بدء القتال من رصاص الجند المحصورين ؛ ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن تشلليني هو صاحب الطلقة القاتلة . وعلى أى حال فان الحادث دليل على جرأة تشلليني ووافر شجاعته . ولم يمنع مقتل بوربون جنوده من اقتحام المدينة ، فدخلوها فى عدة مواضع دخول الضوارى المفترسة ، واضطر البابا كليمنضوس السابع أن يفر مع بطانته الى حصن سانت انجيلو الذى يتصل بقصر الفاتيكان بأقبية سرية ؛ وكان ذلك الحصن الشهير الذى ما يزال الى اليوم قائماً فى رومة على ضفة نهر تيبرى ، من أمنع وأعجب معاقل العصور الوسطى ، يلجأ اليه البابوات بكنوزهم كلما دهم رومة خطر السقوط فى يد العدو ، ويتخذ فى أوقات السلم سجناً تزج اليه البابوية أعداءها . واختار الجنرال دى مديتشى قائد الحرس تشلليني ضمن حرس الحصن اذ كان يعرف شجاعته ؛ وكان الحصن مجهزاً بالمدفعية من جميع نواحيه ، فانتخب تشلليني ليتولى إطلاق احدى وحدات المدفعية ، ولبث مدى شهر يتولى هذه المهمة . ويقول لنا تشلليني انه أتى فى ذلك بالعجب العجاب ، وحصدت قنابله كثيراً من جند العدو ، وباركه أكابر الأحبار وهنأوه على براعته . وفى خلال ذلك استدعاه البابا كليمنضوس ، وكان قد عرفه من قبل وعهد اليه بصنع بعض التحف وأعجب بافتنانه ، وطلب اليه أن يقوم باستخراج جميع التحف والحلى الرسولية من علبها واطاراتها الذهبية ؛ وبعد أن خبأ البابا الجواهر فى بطانة ثيابه وثياب بعض خواصه ، أمره أن يصهر القطع الذهبية سراً ؛ فأخذها تشلليني واشتغل بصهرها فى ركن صغير الى جانب مدفعيته ؛ ولبث أثناء العمل يطلق القنابل على جند العدو ؛ وهنا يقول لنا تشلليني انه أطلق قنابله ذات يوم على فارس يسير حول خنادق العدو فأرداه وتبين انه هو البرنس دى اورانج كبير الجيش المحاصر

وبعد أيام قلائل عقد الصلح ؛ وسار تشلليني الى فلورنس ليزور أباه وأسرته ، ملىء الجيب ، يركب فرساً جميلاً ، ووراءه خادم خاص . وبعد أن مكث قليلاً سار الى مانتوا ليزورها ، واتصل بأميرها دوق مانتوا ، وصنع له بعض التحف الجميلة . ثم عاد الى فلورنس ، فألفاها تتأهب للدفاع عن نفسها ضد جنود البابا كليمنضوس ، فاعتزم أن يشترك فى الدفاع عن وطنه ، ولكن البابا كليمنضوس أرسل يستدعيه اليه ، ويعده بوعود حسنة ، فعاد الى رومة ، واستقبله البابا مراراً ، وعهد اليه بصنع حلى وتحف خاصة بثيابه وتاجه ، ثم عهد اليه بصنع نماذج للنقود تستعمل فى دار الضرب البابوية ، وأبدى تشلليني فى ذلك كله من المهارة والدقة ما جعل البابا يضاعف له العطف والبذل ويعينه ناظراً لدار الضرب . وهنا وقع حادث جديد يدل على صرامة تشلليني وعنفه ؛ ذلك أن أخاه الأصغر جوفانى الذى كان يومئذ فى رومة ضمن جند الدوق الساندرو دى مديتشى اشتبك وبعض فتيان من صحبه ذات مساء مع جماعة من الحرس كانت تقود الى السجن صديقاً لبعض أولئك الفتيان ، فأصيب جوفانى خلال المعركة بجرح خطير ، وحمل مغشياً عليه الى قصر الدوق الساندرو ، فهرع اليه بنفونوتو ، ولكنه أسلم الروح بين ذراعيه ؛ وعرف بنفونوتو الرجل الذى طعن أخاه الطعنة القاضية ، فسار الى منزله ذات مساء ، وكان الرجل يتنزه أمام داره ، فطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر لها صريعاً ، وبذا انتقم لأخيه وشفى نفسه . وعاد الى عمله كأن لم يحدث شىء .